چورج جندى بك
رئيس المحفوظات التاريخية
بديوان جلالة الملك

چاك تاجر
أمين المكتبة الخاصة
لجلالة الملك

# اسماعيل

## كما تصوّره الوثائق الرسمية

مع مقدّمة لحضرة صاحب السعادة يوسف جلاد باشا

مدير الادارة الافرنجية لديوان جلالة الملك

وضع بمناسبة مرور خمسين عاما على وفاة الخديو إسماعيل

١٨٩٥ — ١٩٤٥

القاهرة
مطبعة دار الكتب المصرية
١٩٤٧

# الاهداء

الى مقـام :

حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم

فاروق الأوّل

مصر من أصغر أجزاء السلطنة ، ولكنها تتقدم يوما بعد يوم ، وأما نحن فسقوطنا متواصل على وفرة مواردنا ٩

السلطان عبد العزيز

سنة ١٨٧٤

# المقـــدّمـــة

كان المغفور له الملك فؤاد، طيب الله ثراه، قبل زمن مديد من توجيه عنايته الى إنشاء قسم المحفوظات التاريخية فى عاصمة ملكه، قـد دأب على الاستدلال الى الوثائق المتعلقـة بتاريخ مصر فى القرن التاسع عشر مما تختزنه محفوظات البلاد الأجنبية، ثم استخراج صور منها. فكان يستعين فى ذلك بما له من المكانة السامية لدى رؤساء الدول، أو أعلام حكوماتها، أو ما يجمعه من صلات الود بكبرائها، فضلا عما اشتهر به من نصرته للعلوم والفنون فى جميع الأوساط الثقافية. فقد عقـد العزم على إنشـاء قسم للمحفوظات يرجـع اليه الباحثون فى تاريخ مصر وأسرة محمـد على فتستكمل البلاد بالوثائق الأجنبية ما تحوزه من المحفوظات الوطنية التى كانت مودعة بعضها فى قصر عابدين و بعضها فى دار المحفوظات المصرية.

لا يخفى أن المهمة التى وضعها محمد على نصب عينه منذ ولى الحكم قد لفتت اليـه أنظار أوروبا. وكان لترحيبه المأثور بجميع الأوروبيين من تجار وعلماء وغيرهم أجمل وقع فى النفوس. فـلا غرو اذا انصرف اهتمام العالم الى هـذه الأمة الافريقية الناشئة، واتجهت أنظارها الى الوالى المقـدام. فدأب الأوروبيون فى مصر، من وكلاء سياسيين أو قنصليين، أو بعض

الأفراد النابهين ، على ارسال التقارير الضافية الى حكوماتهم ، لاطلاعها على شؤون مصر والتنويه بنشاط واليها ، أو ابداء آرائهم فى جانب من سياسته ، أو استعراض علاقاته بالباب العالى . تلك هى الوثائق التى آل الملك فؤاد على نفسه أن يجمعها ، وقد كلل النجاح مساعيه إلا قليلها ، فقد تعذر عليه الإلمام بمحفوظات البعض من البلدان الأجنبية ، غير أن الأمل فى ولوجها يوما من الأيام لا يزال حيا .

ولم يكفه ، رحمات الله عليه ، أن يجمع هذه الوثائق الطريفة بمعونة مسيو دوان ، ومسيو ساماركو ، ورينيه قطاوى بك ، ومسيو دريو ، ومسيو بينيس ، ومسيو بوليتيس ، بل أمر بنشر قسم وافر منها تحت رعايته اليقظة وعلى نفقته الخاصة . ولا تزال أقسام أخرى تنشر تباعا بدافع من كرم مولانا جلالة الملك فاروق المعظم ، وواعز من إصالة رأيه الموفق .

فلما اطمأن المغفور له الملك فؤاد الى سير هذا الجانب من عمله الجليل ، توفر على انشاء المحفوظات التاريخية . ففى عام ١٩٢٩ أمر بتأليف هيئة من المترجمين لتعريب الوثائق التركية ، وفى عام ١٩٣٤ تألفت هيئة أخرى لتلخيص الوثائق المترجمة ، ووضع فهارس لها . كذلك لخصت الوثائق المحررة بلغات أجنبية ولا سيما باللغة الفرنسية ، ثم بوبت حتى أصبحت المحفوظات التاريخية للوثائق المحلية والأجنبية مرجعا من الطراز الأول فى تاريخ مصر منذ تولية محمد على الى تنازل اسماعيل عن العرش .

كانت للجهود التى بذلها الملك فؤاد فى شأن المحفوظات التاريخية نتيجة أولى هى نتيجتها الطبيعية العاجلة، أى تنظيم المحفوظات وتنسيقها، ما لبثت أن اقترنت بنتيجة ثانية خطيرة هى تمهيد السبيل بخاصة الى كشف النقاب عن جوانب هامة من تاريخ مصر الحديث، وجلاؤه على حقيقته الرائعة .

ولا شك أن هذا التاريخ كان جديرا بأن يعرف للملأ أجمع، لا لأنه تاريخ شائق لشعب كان له القدح المعلى فى العصور الخالية فحسب، بل كذلك لأن هـذه النهضة كانت مفخرة أسرة شاءت المقادير أن تكل إليها انشـاء مصر الحديثة فى ظروف قد اكتنفها من الصعاب ما لا يعوزه البيان .

على أنه إذا تسنى لكل من محمد على و إبراهيم وعباس وسـعيد أن يتبوأ العرش حتى انقضاء أجله ، لم تتم هذه النعمة للخديو اسماعيل . فقد أكرهت أوربا الباب العالى على إقصائه عن العرش، فعاش ست عشرة سنة فى المنفى. لمـاذا ؟ علل البعض هذا التشدد من الدول بالتبذير، وتراكم الديون ، والإغراق فى اصطناع السلطة ، فحكموا بنفسيتهم الأوروبيـة على عاهـل شرقى لبـلاد ظلت متخلفة عن ركب الحضارة حتى عشرات معدودات من السنوات قبل توليته عليها، ولكنها أصابت فى قليل من الزمن رقما عجيبا تناول حياتها العامة من شتى نواحيها حتى تبدّلت معالمها ، ماديا ومعنويا . فقـد بلغت الفتوحات العسكرية بمحمد على و إبراهيم إلى أبواب القسطنطينية فهزت عرش السلاطين ، كما مدّ اسماعيل ظل الحضارة إلى خط الاستواء . فكان

هذا التوسع مدعاة لتفكير أوروبا ، وصارت أغلى أمانيها انهيار السلطنة التى أسسها محمد الفاتح وسليمان الكبير وقيام إمبراطورية أخرى على ضفات البحر الأبيض المتوسط، وهو الحلم الذى حققه إسماعيل كله أو جله .

على أن جمع المحفوظات المصرية قد دعا أهل الرأى الى إعادة النظر فى قضية اسماعيل، فانبرى من المؤرخين من تولوا الدفاع عنه على ضوء الوثائق الجديدة فى كفاية لم تتهيأ لنا . فالكتاب الذى نقدمه اليوم يهدف الى غرض آخر هو عرض طائفة من هذه الوثائق تظهر اسماعيل فى ملامحه الحقيقية ، فتبرز عزيمته القوية، وعبقريته الإدارية ، وتدل على مساهمته الشخصية فى جميع الأعمال الحكومية ، والمشروعات التى وضعها بإلهام من طموحه الى جعل مصر أمبراطورية عظيمة .

ويحيي هذا الكتاب الذكرى الخمسين لوفاة الخديو اسماعيل ، كما يحيي بر الملك فؤاد بوالده العظيم ، وبذل الفاروق فى إعزاز مصر وهو بذل النفس قبل بذل النفيس .

وقد رغب إلىّ واضعا الكتاب، جورج جندى بك رئيس المحفوظات التاريخية بديوان جلالة الملك ، وجاك تاجر أفندى أمين المكتبة الخاصة لجلالة الملك ، أن أنوب عنهما فى إهداء الشكر الى زملائهما موظفى قسم المحفوظات التاريخية، وبخاصة الى يوسف سمان أفندى ، وقد انقطع منذ خمس عشرة سنة الى ترجمة هذه الوثائق، ومحمود نفعى أفندى، رئيس مترجمى

القسم التركى، وعبد المنعم عثمان أفندى، وعبد الهادى عبد العال أفندى، وفؤاد حلمى أفندى من القسم العربى، فيسرنى كل سرور أن أتولى عنهما الاعراب بهذا العرفان للجميل .

ويطيب لى التنويه بما أسداه من العون فى إخراج الترجمة العربية حضرتا أحمد على يوسف بك السكرتير الخاص المساعد للحضرة العلية الملكية، وعزيز ميرزا بك الرئيس السابق لقلم الترجمة فى الديوان الملكى شاكرا لمروءتهما هذا الصنيع ؛

(ترجمة) يوسف جلاد

[ الوثائق العربية منقولة حرفيا من مراجعها ]

# لمحـــة تاريخيـــة

لم يكن فى نظم الدولة أى فرمان أو قانون يسـند عرش محمـد على الى إسماعيـل بن إبراهيم الفاتح ، ومبـدأ الوراثة المبـاشرة لا يزال سرا فى ضمير الزمان، ومصر خاضعة لسلطان القانون العثمانى ، وهو يختص بالعرش أرشد أفراد الأسرة .

وكأن القدر يدّخر إسماعيل للنهوض بمصر، و يسـدّد خطاه إلى العرش منذ نعومة أظفاره . فقد أصابه فى حداثته رمد حادّ أنذر بمنعه من الدرس، فاستقدمه إبراهيم إلى الأقطار السورية أملا فى أن يكون له من اعتدال جوّها عون على الشفاء، ثم أرسله الى النمسا حيث توافر على معالجته إخصائى شهير.

وكانت ڤينا عاصمـة امبراطورية عظيمـة، وقـد تتبعت ببالغ الاهتمام ما شجر من الخلاف بين السلطان ومحمد على، وكان صدى الانتصارات الحاسمة التى أحرزتها الجيـوش المصرية لا يزال مدوّيا فى أوروبا بأسرها ، وميترنيخ لا يألو جهدا فى التودّد الى مصر الناهضـة ، فيحدب على إسماعيل و يحسن وفادته ، راميا فى آن واحد الى تكريم إبراهيم بطل نزيب ، و إغرائه على استبقاء إسماعيل فى النمسا ليتلقى العلم على أساتذتها .

لقى إسماعيل فى النمسا حفاوة قلما يحظى بها الأمراء، فكان الامبراطور والامبراطورة وسائر أفراد الأسرة المـالكة يؤثرونه بجميل العناية ، و يولونه من آيات الالتفات ما يلهج بذكره . فقد جاء فى كتاب من بونفور — رائد الأمير — إلى أرتين بك "إن الامبراطورة الوالدة غيرت محلها مرتين ، لتدرأ الشمس عن

عينى إسماعيل، وزودته بشتى النصائح ليتقى شر التقلبات الجوية فيتعجل أسباب التماثل للشفاء، مما حمل إسماعيل على الجهر بقوله : (ما لقيت من والدتى وعمتى نصائح أزخر بالعطف والحنان ) " ... ...

وأصبحت أندية ڤينا وحفلات البلاط تضم يافعا من الأسر العريقة يسترعى النظر بأناقته فى زيه الشرقى الفاخر ، يافعا كان فى أول أمره على جانب ملحوظ من التحفظ الحى ، ولكنه ما لبث أن ألف العيش فى نخبة من مجتمع يعدّ أرقى المجتمعات حضارة فى أوروبا .

وواصل إسماعيل الدرس فى باريس، فدخل مدرسة سان سير، ثم آب إلى مصر، وكان موضع ريبة من عباس فأقصاه . فتوافر على استغلال أملاكه وقد شهد كثير من رجالات عصره بأنه دل فى ذلك على مواهب إدارية نادرة المثال، ذلك الى الحرص على التزام الاقتصاد بمعانيه الحميدة .

واعتلى سعيد باشا العرش، فقرّب إسماعيل إليه وأولاه رياسة مجلس الأحكام ، وكثيرا ما ناب عنه فى إدارة البلاد فى أثناء غيابه عن القطر . وقد بدت فى آخر مرة تولى فيها الوصاية بوادر الاصلاح العظيم الذى اتسم به ملكه، ألا وهو التفكير فى إنشاء المحاكم المختلطة .

أخذ المؤرخون على إسماعيل ما أخذوا من الأخطاء ، وأنكروا عليه ما أنكروا من الفضل، بل نسجوا عنه من الأساطير ما اختلط بالتاريخ، فظل وصمة فى ملكه . فبينما يلومه البعض على عبثه بالمصالح القومية فى مسألة القنال، يذهب فريق من الأوربيين إلى أنه، على نقيض ذلك، عرقل تنفيذ المشروع، ويعتقد البعض الى اليوم أن إسماعيل مسؤول عن تراكم الديون على مصر ،

وقد غاب عنهم أن سعيدا خلف دينا يناهز ستة ملايين ونصفا من الجنيهات فضلا عن أسهم القنال التى لم تسدّد قيمتها، وأن عجز الميزانية يوم وفاته كان فى الحق فادحا .

و يأسف الآخرون على ما ضاعف تلك الديون من بذخ إسماعيل. وقد فاتهم ما تدل عليه الوثائق الرسميـة أبلغ دلالة من أن دائنيه كانوا على جانب عظيم من الجشع، وطالمـا أغرتهم مطالب الدول على الاستمساك بشروطهم القاسية، وأن الأموال التى اقترضتها مصر لحفر القنال، ولا تقل عن سبعة عشر مليونا من الجنيهات، لم تجن منهـا البلاد إلا الخيبـة . وأن و باء تفشى فى العهـد الأوّل من ملك إسمـاعيل أباد وحده ٧٠٠٠٠٠ رأس من الغـنم والمـاشية، وأن الهيضة شلت حركة الإدارة زمنا وحصدت الأهالى حصدا، وأن فيضان النيل بلغ مرتين حدّ الكوارث، فأصيبت المزروعات وانخفضت الصادرات ، فاضطر إسمـاعيل الى الترفية عن المنكوبين بإعفائهم من دفع الضرائب . وكانت هذه العوادى وحدها كفيلة بأن تجرّ على مصر و يلات الفقر، وتستدرجها إلى ورطة الإفلاس .

أبى النقاد على إسماعيـل بذل المـال فى استانبول لينتزع من السلطان ووزرائه تلك الفرمانات التى حققت لمصر الاستقلال التام أو كادت، و يغفلون أن الاستقلال كان أمنية طالمـا تعلل بهـا أسلافه ، وأن رقى مصر المطرد، ولا سيما منذ تولى إسماعيل العرش، كان يزيد العلاقات بين مصر وتركيا توترا، إذ وقفت استانبول موقف الريبـة من مصر التى سبقتها فى ميدان الرقى . وكان إسماعيل على بينة من دخيلة الباب العالى، فقال فى حديث له مع قنصل فرنسا سنة ١٨٧٠ : "إنى أجارى المدنية وتركيا جامدة لا تتحرك، فهل الذنب

ذنبي؟ ليحذ الباب العالى حذوى، وليرسم السلطان المثل الذى أرسمه . ليأمر بزراعة الأراضى التى لا تستغل . ليدخل استعمال الآلات الزراعية الحديثة، وليستبدل بالأنظمة العتيقة أنظمة يتناولها الرقى يوما بعد يوم . ولكن تركيا لا تفعل ذلك وترانى أفعل، فتشعر بالمذلة . إن مصر عشر تركيا فى مساحتها، ومع ذلك فهى تنتج نصف ما تنتج السلطنة" . هذا الى أنه ترتب على استضعاف السلطنة العثمانية أن خضوع مصر لها أصبح فادح الثقل، إذ كان على مصر، فضلا عن دفع الجزية، أن تشترك فيما يشهر السلطان من الحروب، وتساهم فيما يجرّد من الجيوش لقمع الثورات، وقد كلفها قمع الثورة الكريتية وحدها ١٣٣٣ جنديا و ٨٨٥٠٦٢ من الجنيهات .

ولا مراء أن هؤلاء النقاد، إذ يحصون ما لإسماعيل وما عليه، لا يقيمون وزنا لشتى الفوائد المادية والأدبية التى حققها بما نفذ من جليل المشروعات، وأتى من ضروب الإصلاح فى أنظمة الدولة . وعند البعض أن تلك الأعمال بوشرت على العموم فى ظروف غير مواتية، أو أن جانبا منها أثقل كاهل الخزانة ولم ينجز . والخلاصة أنهم يأخذون على إسماعيل طموحه، إذ طاول الزمن فسخره أن يحقق فى بضع سنوات ما تضيق به الأجيال . وما أسهل ذلك اللوم على من فاتتهم الظروف المكتنفة بمصر يوم ولى الحكم، بل الملابسات التى ألجأته الى القيام على عجل بسلسلة من الاصلاح . والحق انه لا بدّ من التفريق بين نوعين من مشروعاته : نوع فرضته عليه الظروف فرضا، ونوع ولى عنايته شطره عن اختيار .

أما النوع الأول فهو أفدح الاصلاح ثمنا وتكليفا . كان فرديناند دى لسبس ماضيا بهمة عالية فى حفر القنال بعد ما بذله له سعيد من الوعود،

وما زوّده به المصريون من المـال . فهل كان فى مكنة اسماعيل أن يشـل العمل دون أن يلحق الأذى بمالية البلاد و يوغر صدر فرنسا عليه ؟ وهل كان فى مكنته من ناحية أخرى أن يدع العمل يسير بالشروط التى ارتضاها سعيد؟ ولو فعل، أما كان موقف اسماعيل هذا يؤول، إن حقا وإن باطلا، على أنه إقرار صحيح باقامة جالية أجنبية فى نقطة حساسة من نقط المواصلات الدولية ما أحراه أن يثـير الظنون فى انكلترا . إلا أن إسماعيل قـد اضطر اضطرارا لصون الأراض المصرية ولدرء شر أوربا، الى أن يدفع التعويض الفادح الذى فرضه عليه نابليون الثالث لمـا احتكم اليه الخصمان .

لا مراء أن مطالب إسمـاعيل كانت حقـة فى مجموعها ، ولا أدل على ذلك من شهادة الامبراطور نابليون الثالث نفسه . فقد جاء فى كتاب بتاريخ ٢٨ يناير سـنة ١٨٦٤ من وزير الخارجية الفرنسية الى المسيو تاستو قنصل فرنسا العام فى مصر : " إن جلالة الامبراطور يهمه جدا ، على ما أنبأتكم به مرارا ، تنفيذ هذا المشروع الذى يحقق من الخير العام ما يحقق ، بل هذا المشروع الذى يستحق عطف العالم المتمدين بأسره . على أن جلالته يرغب بمـا يحدوه من الودّ لإسماعيل باشا، فى أن يحسب حساب عادل يتفق مع شروط المشروع الأساسية ، والاعتراضات التى رأى الخـديو من الواجب عليه إثارتها فيما يتعلق ببعض الشروط التى وافق عليه سلفه ) . فهل كانت فرنسا أو أية دولة أخرى قد رضيت بتعديل تأباه مصلحتها اذا خالجها أقل شك فى صحة ما يثيره هذا العقد المبرم من شكوى وتظلم ؟

على أن إسماعيل لم يقنع بتنفيذ حكم المحكمين تنفيذا صادقا نزيهـا ، بل إنه أمدّ شركة القنـال فى أعصب ساعاتها بمساعدة كان لا بدّ منها لإتمـام

المشروع . والوثائق الرسمية مجمعة على موقفه النبيل ازاءها فى ورطتها . فقد حدث المرة تلو المرة أن كانت تقديرات الشركة لتكاليف الأعمال دون الحقيقة . ففى المرة الأولى ( أغسطس سنة ١٨٦٧ ) اقترضت الشركة ماية مليون فرنك لم تحصل عليها من الأسواق المالية الفرنسية إلا بشق النفس .

ولما احتاج دى لسبس الى المال مرة أخرى فى ديسمبر من نفس السنة ، وتبين أن الأسواق الفرنسية ستساومه مساومة جدية ، كلف روسنايرس ساعده الأيمن أن يعجم عود الحكومة المصرية . فكتب إبرام بك الى نوبار باشا فى ٢٦ ديسمبر سنة ١٨٦٧ يقول : جاءنى روسنايرس يسألنى من قبل مسيو دى لسبس « هل فى إمكان الحكومة المصرية أن تدفع الأقساط التى سيحل ميعادها فى هذا العام والعام المقبل ، وهى ثلاثون مليونا من الفرنكات ، بسندات على الخزانة لثلاث سنين ؟ » . فأجبت روسنايرس « إن ظهور السندات فى السوق بمثل هذا القدر لوخيم العواقب ، ضار بسمعتنا المالية . وقد بدر من روسنايرس فى حديثه ما يفهم منه أنه اذا لم نمدهم بالمساعدة فلن يتأتى لهم المضى فى العمل ، وأن الشركة ستضطر الى وقفه بعد ثلاثة أشهر .

ومع هذا فان حفر القنال تم بفضل إسماعيل وعونه ولكن أنى له العرفان بجميله ؟ .

* * *

كان إنشاء المحاكم المختلطة ثانى ضرب من ضروب الإصلاح التى أملتها الظروف على إسماعيل ، وفرضتها المصلحة القومية عليه . فقد كان تدخل القناصل فى القضايا التى تنشأ بين أبناء وطنهم و بين المصريين ، أو بينهم